الدَّرْيَا أو اللسان(la science et la langue)

الحسن الحافي

المغرب

تلخيصة: ف هاذ التوليفة حاولت نتكلم اعلى علاقة الدريا (la sciences) باللسان او ضرورة تدول الدريا بالسان الحي اديال المجتمع، شرط لا بد منو باش يتحقق التحضر.

1- مقدمة

اليوم مفكرين او مكياسة ف المجتمعات اديال العرب اغلبهم ابعاد اعلى المجال اديال الدريات كيحاربوا للأسف أي توطين للدرية بالمجتمع بوعي او بيغير وعي، كيروجوا لنقاش مغلوط لهاذ الغاية، ماستاغلّين الماتاهجّايت او الجهل اديال اغلبية الناس ف المجتمع بهاذ القضية. ف كل الرّبيّات او التحاليل اللي كيقدموا للمجتمع كيطرحوا إشكالات وهمية كتعلق بياش من لسان ايخص تدريس الدريات، ثم كيوضعوا قودام الراي العام اكالثة اديال الخيارات من غيرهم ما كاين والو. اللول، العربية اديال موضر، الجاوج الفرنساوية اديال افرانسا او الثالث النگليزية اديال ميريكان. كيتناقشوا فيهم مرة مرة ف الصالونات اوكيتعايروا ف اغلب لوقات ملي ايكونوا قودام الاتباع. ف هاذ المقارعة كتطغى بالطبع الايديولوجية، اللي كيدافعوا اعلى العربية اديال موضر كيرتاكزوا فيها اعلى الخوف اعلى الهوية او ماضي كيصوروه بأنه كان ازمان اديال المجد او العظمة، او إوا كيخونوا المدافعين اعلى الفرناسوية او كيتّاهموهم بالتحالف امع الاستعمار او باغيين يقضيوا اعلى الدين او الملّة، بينما هاذ التوالي كيشوفوا اللسان لفرانساوي لسان درية افرض راسو هاذي قرون او ساهم بشكل اكبير ف عصر لنوار اوزيادة اعلى هاذ الشي كتربطنا بهاذ العالم الفركوفوني مصالح اقتصادية اكبيرة عندها تاثير اكبير اعلى التوازن أو الاستقرار اديال المجتمع او التعليم بهاذ اللسان يمكن يسمح للمغاربة يتمكنوا من الدريات او الصناعة المعاصرة إلى اقراوا به أو إوا ايحققوا احلامهم اوايديروا لباس ف المجتمع. أما اللي كيدافعوا اعاى النگليزية فهما غالبا من انصار عربية موضر اللي كيميلوا للمناظرة اكثر من المعيور او المواجهة او اللي كذلك ف الداخل اديالهم ما مقتانعينش بالقدرة اديال العربية اديال موضر باش اتواكب التطور اديال هاذ العصر، غرضهم الأساسي هو ايضعفوا القوة اديال الفركوفونية، فكيبرروا القناعة اديالهم بأن اللسان اديال النگليز هو لسان الدريا العالمية. ف وسط هاذ الصراع، اللي عامة لمغاربة ما كيفهموا منو غي الخطبة اللي كتهدد ولا كتشهي، الواحد كيتساول واش فعلا لسان لمغاربة اللي قايم بذاتو ما صالحش او ما يمكن تتوطن الدريا إلا بلسان اجنبي ولا لسان ميت؟ فواش تعليم الدريا يقتضي هاذ الشرط اديال اللسان بهاذ الشكل؟ الجواب هو لا، الدريا هي ادراك انساني كوني او يمكن لأي لسان، بشرط ايكون اللسان المتداول؛ لسان حي قادرين امواليه يغنيوه اوايطوروه حسب الحاجة اديالهم، وخى ياخدوا من اللسون لخرى ما يحتاجوه ابلا عقدة ابلا خوف باش يبقاوا امسايرين العصر اديالهم. هاذ الشي اللي غادي انحاول نشرح ف هاذ التوليفة.

2- الدريا غايتها الصناعة

هاذ الحقيقة ثابتة اعلى ما فات من العصور، ف كل الحضارات إلاّ أو كان الهدف من الدريا هو الاستجابة لحاجيات التحضر أو الأمن أو الاستقرار. ف بن خلدون من العباقرة المسلمين اللي انتبهوا لهاذ المسألة، كيگول ف المقدمة ف الباب سطاش اللي امْعانْوان :**" في أن الصنائع لابد لها من العلم"** (كيقصد بالعلم الشي اللي كنسميه أنا الدريا، العلم بالنسبة ليا هو كيقتاصر اعلى اللاهوت) (1):

"إعلم أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري و بكونه عملياً هو جسماني محسوس"

ثم كيگول:

"و لهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة و لا يوجد منها إلا البسيط فإذا تزايدت حضارتها و دعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت (كيعني الملكة) من القوة إلى الفعل."

ثم كيتابع كذلك ف نفس المعنى:

"و تنقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً كان أو غير ضروري و إلى ما يختص بالأفكار التي هي خاصية الإنسان من العلوم و الصنائع و السياسة. و من الأول الحياكة و الجزارة و النجارة و الحدادة و أمثالها. و من الثاني الوراقة و هي معاناة الكتب بالانتساخ و التخليد و الغناء والشعر و تعليم العلم و أمثال ذلك. و من الثالث الجندية و أمثالها."

من خلال هاذ النصوص كيبين ابن خلدون بأن الصناعة لابد لها من الدريا، أو هاذ الصناعة كتطور او كتزدهر كل ما كان التحضر اكبير، الشي اللي كيخلّي تعليم الدريات هو كذلك من هاذ الصنايع أو من أجل هاذ الصنايع. حيث كيأكد ف الفصل الثالث من الباب السادس **"في أن العلوم إنما تكثر حيث يكثر العمران و تعظم الحضارة"**:

"والسبب في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع. و قد كنا قدمنا أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار و على نسبة عمرانها في الكثرة و القلة و الحضارة و الترف تكون نسبة الصنائع في الجودة و الكثرة لأنه أمر زائد على المعاش. فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان و هي العلوم و الصنائع"

ف هاذ الراي اديال ابن خلدون ما دخلش نوع اللسان اللي ايخص كشرط لانتشار الصنايع او تعليم الدريات، السبب هو انه اهنا كيتكلم كديراوي بتجرد من أي أيديولوجية، حيث ف هاذ الإطار اللسان هو معطي او امر واقع هو اللسان المتداول اديال الامصار.

ف العصر اديالنا اليوم، ما تلقاش شي ابلاد متطورة ف الدريا ماشي امطورة ف الصناعة، أو اشحال ما كانت السياسة اديال هاذ البلاد كتهتم بهاذ الارتباط اشحال ما كان التطور التكنولوجي ف الطليعة او كان الاقتصاد اديالها مزداهر او امتالكت اسبايب القوة او الاستقرار. ف هاذ المعنى كيگول العرفاوي الأمريكي إدوار تيلر (le savant américain Edward Teller) "الدريا اديال اليوم هي التيكنولوجيا اديال غدّا" (The science of today is the technology of tomorrow)، او المقصود بالدريا اهنا هي الدريا بكل المجالات اديالها، فيمكن مجال معين يلقى التطبيق مباشرة، أو مجال آخر ما نعرفوش لمن

يصلح ف التطبيق اديالو ف هاذ الوقت، يقدر ايكون عندو تطبيقات اعظيمة ف المستقبل، ابحال مثلا نظرية الأعداد اللَّوْلِيَّة (les nombres premiers) اللي كانت معروفة من وقت اليونان قرون اقبل الميلاد اديال المسيح او كانت كتعتبر رياضة ذهنية عند ديراوة اديال الرياضيات اعلى طول اكثر من 2000 عام حتى جا عصر الرقموية (l'ère du numérique) او صبحت لهاذ الأعداد تطبيقات اعظيمة ف تبادل المعلومات اعْلَبُعد بأمان، فلو كان ماشي هاذ الأعداد ما عمر يقدر الواحد يتصرف ف افلوسو بالبطاقة البنكاوية بأمان.

3- تعليم الدريا صنعة ما كتتقنهاش المجتمعات اديال لعرب

بما أن الدريا غايتها الصناعة، أو بما أن هاذ الصناعة انتقلت اعلى مرّ العصور بفعل التطور الحضاري من البساطة للتعقد الكبير، فتعليم الدريا انتاقل حتى هو من كونها تتّكتاسب بممارسة الصناعة لكونها تَتّكتاسب بالتعليم او اصبح إوا تعليم الدريا صنعة. أو بفعل هاذ العلاقة الجدلية بين الصناعة او تعليم الدريا اصبح التأثير بيناتهم متبادل، فكلما كان تعليم الدريا متطور كلما كانت الصناعة متطورة او كلما اتطورت هاذ الصناعة إلا او انعاكس هاذ التطور اعلى محتوى هاذ التعليم او المناهج او الوسايل اديالو او افرز إوا تطور حضاري او كيساوي (يعني بالمصطلح اللي كيتسعمل اليوم: ثقافي) اجديد. فاشحال امّا أتمكن المجتمع من هاذ الترابط او استوعبوا اشحال ما اقدر ايجاوب اعلى كل الاكراهات اللي توقف ف وجه الاستقرار او التقدم الحضاري اديالو. اليوم هاذ الغاية اتجاوزت حتى حدود المجتمع او صبحت كونية تهدف لتحضر العالم او استقرارو او الحفاظ اعلى التوازنات اللي فيه، منها بالخصوص الحفاظ اعلى البيئة، السلم ف العالم، الصحة العالمية، الأمن الغذاوي او استكشاف الفضا او غيرهم، باش تقدر تستامر الحياة فوق هاذ الكوكب.

فإلى كان هاذ هو تعليم الدريا او هاذي هي الغاية اديالو كما فصلها العرفاوي ابن خلدون هاذي اكثر من ست اقرون، اعلاش ما قدرتش المجتمعات العربية تخرج من هاذ الواقع اللي يمنعها من التقدم او التحضر؟ او مازال تعليم الدريات فيها شبه منعادم او ما عندو أهمية ف السياسات العمومية. هاذ القضية اتناولها ابن خلدون كذلك او بيّن من خلالها أن عقلية العرب او اكياستهم، خاصة القبايل اللي كانت امهيمنة اعلى هاذ المجتمعات، كانت تحتاقر الصنايع او منها التعليم حيث كان الْهَمّْ اديالهم هو السيادة او الحكم، بينما كان ايبان ليهم أن هاذ الصنايع هي اديال المعيشة فقط او ما عندها تأثير اعلى السيادة او الحكم. ف هاذ المعنى كيگول ف المقدمة:

"و أما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة و سوقها و خرجوا إليها عن البداوة فشغلتهم الرئاسة في الدولة العباسية و ما دفعوا إليه من القيام بالملك عن القيام بالعلم. و النظر فيه، فإنهم كانوا أهل الدولة وحاميتها و أولي سياستها مع ما يلحقهم من الأنفة عن انتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع. و الرؤساء أبدا يستنكفون عن الصنائع و المهن و ما يجر إليها و دفعوا ذلك إلى من قام به من العجم والمولدين"

فكانت كما بين ابن خلدون ف هاذ النص هاذ الحرفة من اختصاص العجم اللي هما بطبيعة الحال الفرس او الترك او غيرهم ف الشرق او المولدين اللي هما السكان الأصليين اديال الأندلس من أوروبيين او أمازيغ ف الغرب.

ثم كيبن ف نفس الاتجاه ان الناس اللي كيحترفوا هاذ الحرفة اديال التعليم هما من المستضعفين، او أن محاولتهم لتغيير الواقع هي وهم ف إطار الدولة اللي ف نظرو كتقوم اعلى العصبية:

"أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية و المعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم فيتشوف الكثير من المستضعفين أهل الحرف و الصنائع المعاشية إلى نيل الرتب التي ليسوا لها بأهل و يعدونها من الممكنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع و ربما انقطع حبلها من أيديهم فسقطوا في مهواة الهلكة و التلف و لا يعلمون استحالتها في حقهم و أنهم أهل حرف و صنائع للمعاش"

هاذ الكلام اديال ابن خلدون كينطابق مازال اعلى الواقع الحالي اديال المجتمعات العربية. فإشكالية اصلاح التعليم او تعليم الدريات بالخصوص ماشي مشكل سياسات ولكن مشكل علقية او كياسة متجذرة من هاذي اقرون كتقاوم تعليم يخلق التحضر او التقدم باعتبار أنه كيأثر اعلى المجتمع او ايغير البنيات التقليدية اديالو او يدفعها باش اتكون تتطور او تتأقلم امع الواقع او المحيط.

ف مقابل هاذ المقاومة لتعليم الدَّرْيات، آمنوا العرب فقط بالتعليم الديني اللي هو عبارة اعلى تبليغ خبري ماشي تعليم صناعي، يعني الدعوة الدينية، الشي اللي خلّى المجتمع يبقى تقليدي عتيق او امنع أي تحضر ايأدي للتطور اللي يمكن ينتج اعليه تحول ف العقلية او الكياسة اديال العرب المبنية اعلى العصبية القبلية. هاذ الشي كذلك انتباه ليه ابن خلدون هاذي ازمان حيث ايگول ف المقدمة (1):

"أن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك و لم يكن العلم بالجملة صناعة إنما كان نقلاً لما سمع من الشارع و تعليماً لما جهل من الذين على جهة البلاغ فكان أهل الأنساب و العصبة الذين قاموا بالملة ثم الذين يعلمون كتاب الله و سنة نبيه صلى الله عليه و سلم على معنى التبليغ الخبري لا على وجه التعليم الصناعي"

هاذ العقلية أو الكياسة تجاه الصناعة ولات كتشكل حاجز نفسي اكبير ف المجتمع، حيث مازال كيتعتابر الصنايعي ولا رجل التعليم كينتاميوا لفئة اجتماعية ما عندها قيمة، أو ما تلقى حتى واحد من هاذ الفئات راضي او عاجبتو المكانة الاجتماعية اديالو وخي عندو لفلوس او عايش لا باس اعليه. أو بدل الوعي بهاذ البلوكاج الكيساوي او العمل اعلى تجاوزو من أجل التنمية، كيتم تكريس هاذ الواقع بإفراغ هاذ التعليم من أي قوة يمكن اتخليه يتطور لمستوى يعطي تحضر او استقرار. اخطر سياسة ف هاذ الاتجاه هي الدَّسّان اديال هاذ البلوكاج الكيساوي او النفسي او تدويخ العامة بطرح إشكالات وهمية أو اعلى راسها السؤال اديال اللسان (اللغة) اللي ايخص يتمارس بيه هاذ التعليم.

4- الدريا هي وعي أو إدراك للحقيقة مبنيين اعلى أسس كونية

كيتم اليوم ف المجتمع اديالنا الترويج لفكرة مغلوطة من طرف قوى كتقاوم التحضر او التقدم، كتوضع فيها عملية توطين أو تعليم الدريات ف أزمة غياب اللسان عند المغاربة او بالتالي كتوهم الناس بأن الدريا عندها لسان اديالها من بين اللسون اللي كاينة ف العالم، هو لسان الدريا، ابلا به ما يمكنش الدريا تنتاشر ف هاذ لبلاد، او من هاذ الباب كيشرعنوا لصراعات وهمية بين الأنصار اديال هاذ اللسان ولا هاذا بمبررات ابعيدة اعلى أي منهاج ديرياوي، مبررات ف الغالب مغالطات او معلومات ماشي اصحيحة او تزييف للحقيقة. اللي كيغبن اكثر

هو ان هاذ القوى كتجر امْعها عدد من المكياسة ف الغالب ما كيعرفوش اشنو هي الدريا او كيحرك الميولات ديالهم التكوين الأدبي اللي اتلاقّاوه او العاطفة المنكوبة اكثر من لقياس.
لوكان الواحد يرجع ايقلب ف التاريخ ديال الإنسانية ملي ابدات الكتابة، أو حتى منقبل، غادي يفهم بأنه فاتت حضارات اكبيرة عرفت فيها الدريات ازدهار اكبير من الصين القديمة، الهند، مصر، قرطاجة، اليونان، المايا او الأنكا او غيرهم. من المؤكد أن الدريا كانت كتمارس ف هاذ الحضارات باللسون الحية ديال هاذ الشعوب، أو كانت كذلك الحقيقة الدريوية او الشي اللي كينتج اعليها من تطبيقات كتكّْطَع هاذ اللسون او تنتاقل بالفوقي ف الزمن الواحد بين المجتمعات بتنوع اللسون ديالها، او تنتاقل كذلك بالعمودي عبر الزمن من حضارة ماتت لحضارة اجديدة باستقلال اعلى اللسان. هاذ الحقيقة هي اللي خلات الدريا كتتطور بدون توقف او الإنسانية محكوم اعليها حتمية التطور الحضاري المتواصل ابلا توقف او لا ركود. اهنا لابد ما انشير أن الايديولوجية اللي كتروج ف الغرب بأن ما بين بداية عصر النهضة الاوروباوية اللي اعطات الحضارة الحالية اللي هما ف المركز ديالها او ما بين اغبور حضارة اليونان اللي كيستمدوا منها جذور هاذ النهضة، اللي كيتجاوز الف عام، كان الركود الحضاري، ما كترتاكزش اعلى أي حقيقة موضوعية. هاذ التطور ديال الدريا ف التاريخ كيأكد حقيقة أن الدريا ما كتخضعش لسيطرة لسان امعين ولكن كترتكز اعلى مبادئ كونية مشتركة ف الفكر الإنساني كتسمح لأي أنسان يفهم الواقع او يفهم المحيط ديالو او يوصل لنفس النتيجة مهما كانت الحضارة اللي كينتمي ليها او اللسان اللي كيعبر به.
هاذ الحقيقة كيعرفها كل من اكتاسب ملكة الدريا او اعرف المبادئ ديالها. هاذ الشي انتابهوا ليه الناس ديال الدريا من بكري. ف ابن خلدون، ف النصوص اللي اذكرت ف الفصول اللي منقبل، كيربط الدريا او التعليم بالتحضر او التحضر ما يمكن ايكون إلا باللسان المتداول ديال المجتمع المعني بهاذ التحضركما اذكرت منقبل، هاذ المسالة كيأكدها حيث ايگول كذلك ف المقدمة (1) :
"و ذلك أن الحذق في العلم و التفنن فيه و الاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه و قواعده و الوقوف على مسائله و استنباط فروعه من أصوله. و ما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفن المتناول حاصلاً".
كذلك أبو حامد الغزالي ف **"الإملاء في إشكالات الأحياء"** كيلاحظ بأن الحقيقة الدريوية مستاقلة اعلى اللسان او انها مرتابطة بالبصيرة السليمة أو أن تحويلها للسان ما هي إلا ترجمة للناس اللي ما قدروش يوصلوا ليها، يعني أن اللسان كيجي ف المرحلة ديال التعليم لنقل المعلوم أو النشر ديالو، حيث ايگول (2):
"و أما الصنف الثالث و الرابع فهم أرباب البصائر السليمة الذين نظروا بها إلى أنفسهم ثم إلى سائر أنواع المخلوقات فتأملوها فرأوا على كل منها خطا منطبعا فيها ليس بعربي ولا سرياني و لا عبراني و لا غير ذلك من أجناس الخطوط، فبادر على قراءة من لم يستعجم عليه و تعلمه منهم من استعجم عليه"
اهنا ملاحظة ف غاية الأهمية حطها حجة الإسلام أبو حامد الغزالي او اللي ما عمر انتابهوا ليها المسلمين ف هاذ النص، كتعلق بتقريرو أن هاذ الحقيقة مكتوبة بخط مختالف اعلى كل الخطوط او الرموز اللي كتمثل اللسون المتداولة بمعنى ان للدرية لسانها الكوني. هاذ الملاحظة هي اللي استوعبها منبعد مؤسس الدريا المعاصرة؛ العرفاوي الطلياني ݣاليلي او

خلاه يحسم قضية ارتباط الدريا باي لسان، بالخصوص باللاتينية ف القرن سطاش بالإعلان الشهير اديالو اللي ݣال فيه (3):
« La philosophie est écrite dans cet immense livre qui se tient toujours ouvert devant nos yeux, je veux dire l'Univers, mais on ne peut le comprendre si l'on ne s'applique d'abord à en comprendre la langue et à connaître les caractères avec lesquels il est écrit. Il est écrit dans la langue mathématique et ses caractères sont des triangles, des cercles et autres figures géométriques, sans le moyen desquels il est humainement impossible d'en comprendre un mot. Sans eux, c'est une errance vaine dans un labyrinthe obscur. »
اللي الترجمة اديالها باللسان المغربي :
"الفلسفة مكتوبة ف هاذ الكتاب الهايل اللي ديما مفتوح قدام عينينا، ابغيت انگول الكون، ولكن ما نقدروش نفهموه إلى ما اتدربناش بعدا نفهموا اللسان او نعرفوا الحروف اللي راه مكتوب بيهم. راه مكتوب باللسان اديال الرياضيات أو الرموز اديالو هما المثلثات، الدواور أو اشكالات هندسية أخرى، ابلا هاذ الوسيلة راه مستحيل أي إنسان يفهم فيه كلمة وحدة. ابلا بيهم، راه ضلال ف الخسران ف متاهة كحلة"
هاذ الإعلان شكل تحول او منعرج حاسم ف تاريخ أوروبا المعاصرة او رجع الثقة للشعوب اديالها اللي كانت تحت تسلط الكنيسة اللي كانت كتشوف بأن المعرفة ما يمكن اتكتاسب إلا باللسان اللاتيني الميت، الشي اللي خلى الدريا او المعرفة تنتاشرف كل هاذ القارة بلسوناتها المحلية او انتاشر التعليم الصناعي او ما عمر كان اللسان خلال عصر النهضة حاجز لانتقال الدريا بين هاذ الشعوب بل حقق تراكم ما عمر حققتوا البشرية ملي ابدات الحضارة، فازداهروا التواليف او الترجمة لدرجة اكتشاف المطبعة، او اتنقلوا ديراوا من ابلاد لبلاد لتقديم المعرفة اديالهم او الاكتشافات اديالهم او للتعليم او المناظرة.
فلو كان ماشي هاذ الحقيقة ما كانش اتكون الدريا كونية او اتشكل تراكم لصالح البشرية من بداية انفصال الإنسان اعلى مجتمع الحيوان. فكل الحضارات كما بينت كانت الدريا كتمارس فيها باللسان اللي كيهدر بيه المجتمع او كيتواصل به. فنْقرضت هاذ اللسون ولكن الدريا واصلت التطور اديالها بلسون اجديدة حية او اميَسْرة. حتى انه يقدر الواحد ايوكّد بأن انحطاط هاذ الحضارات كان بسبب موت اللسون الأصلية اللي كانت وسيلة تعليم هاذ الدريات الشي اللي أدى لعدم القدرة اعلى استمرار التوطين اديالها باللسون الجديدة الحية او انعكاس هاذ الواقع اعلى ضعف استمرار التحضر فيها حتى غبرت.

5- توطين الدريا ما يمكن ايكون غي باللسان الحي اديال المجتمع:

لو ارجعنا لكلام ابن خلدون اللي اذكرت منقبل، فهو كما لاحظت ما الْتفتش للسان كشرط باش تزدهر هاذ الصناعات أو إنما اربطها بالتحضر، او التحضر هو مجهود جماعي او حصول اديال المساهمة اديال كل فرد ف المجتمع. كذلك ف النص اديال ݣاليلي الفوقاني، كيبان بأن هاذ الدرياوي كان واعي بأن الدريا مايمكنش يستولي اعليها شي لسان كيف ما كان، فهي عندها لسانها اللي يمكن يستوعبو أي لسان حي، بينما ما يقدرش لسان ميت ايواكب التطور اديالها، لسان الدريا هو بمثابة لحبل ولا القنطرة اللي كتربط اللسون الحية، حيث عبر التاريخ دايما كتلقى اللسون كتاخد من بعضها بعض المصطلحات ابلا عقدة ولا خوف حيث المصلحة

كتفرض هاذ المسالة. هاذ القناعة هي اللي دفعاتو باش يكتب واحد من اشهر الكتوبا ف تاريخ الدريا "حوار اعلى المنظومات الكبيرة اديال الكون بجوج" ف 1632م، اللي انتاقد فيه نظام ابطوليمي باللسان الطلياني اللي كان ماشي معترف به ف وقتو كلسان درية.

ففْ كل المجتمعات بما فيها المجتمعات المتخلفة فيها صناعات عتيقة، كيسميوها عندنا الصناعة التقليدية للأسف (*)، كتمارس او كيتم التعليم اديالها او كتوارث بدون حاجة حتى للمدرسة و إنما فقط ف الورشة. هاذ الصنايع راه مورها درية، وخى اليوم كيبان عندنا ابسيط او كيمارسوه ناس من العامة، فهو ف الدول المتقدمة مجال اديال الابداع او اديال تطبيق الأبحاث الدريوية المتطورة او منو خرجوا معظم الشركات العملاقة او اللي ولات عالمية. هاذ الصنايع كيتمارسوا بلسان التواصل اديال المجتمع ماشي بشي لسان آخر، فالواحد ما يتخيلش شي انهار يدخل عند شي امعلم نجار ولا سدور ولا صياغ ولا أي احرايفي امعلم ف الورشة اديالو او يلقاه يتعافر امع شي مْتْعَلّم ايورّيه كيفاش يكتاسب المهارة اديال الحرفة او يتقنها باللسان الطبيعي اديال التواصل اليومي أو ايگول ليه: "احبس السي محمد آش كتدير؟ ايخصك اتعلمو بلسان قريش ولا لسان افرانسا و لسان الدريا العالمي "! أكيد إلى كان هاذ المعلم ما ف انهاروش غادي ايْشَيّر اعليه بشي امطيرقة ولا بشي مفتاح.... حيث غادي يفهم بأن الهدرة ابحال هذي ما هي إلا تضياع للوقت او حيلة باش ايضيع الصنعة او ايضيع الرزق اديالو امعاها.

فتعليم الدريات، إلى راه يندار اليوم ف المجتمعات المعاصرة ف المدرسة، فعلحقاش كما اذكرت الصنايع اللي ف الحضارة المعاصرة اكثار او امنوعين اوامعقدين او كيتطلبوا معرفة او درية امعقدين، الشي اللي انتج اعليه تعليم امعقد أو كيتطلب إمكانيات أو كفاءات عالية أو ايخص يتوفر لكل الناس باش الجميع ايشارك ف مسلسل التحضر المنشود. هاذ الهدف ما يمكن يتحقق إلا بتعليم هاذ الدريات بلسان المجتمع الحي اللي هو لسان التواصل اديال كل افراد المجتمع ف الدار او ف المدرسة او ف الصالونات او المؤسسات او ف الزنقة، ماشي بشي لسان آخور كان ميت ولا أجنبي ولا حتى عالمي، لأنه ف هاذ الحالة إلى اتبناها شي مجتمع النتيجة غادي اتكون الجمود او المحاصرة اديال أي محاولة اديال التحضرالشي اللي غادي ايغرق المجتمع ف التخلف او عدم القدرة اعلى مسايرة العصر. ف اليوم ف كل المجتمعات اللي كتخدم اعلى جال التقدم او التحضر كتمارس التعليم اديال الدريات بلسانها الحي، او المدرسة فيها ماشي عالم منعازل ولكن كيتداول فيه نفس اللسان اللي كيتدوال ف الدار او ف الزنقة او ف الشنطي، او ما كيفكروش تماما، ف مرحلة تملك أصول او مبادئ المعرفة او الدريا، انهم ايقريوا باي لسان من غير لسان المّاين، فف أوروبا كل دولة كتقري بلسانها، ف روسيا، ف الصين او ف غيرهم، او كل هاذ الشعوب كتساهم بشكل اكبير ف تطور الدريات او الصنايع او التيكنولوجيا او عندها دور اكبير ف التحضر العالمي. هاذ الواقع كينفي انه ايكون كاين لسان اديال الدريا عالمي. المقصود بلسان عالمي للدرية ف هاذ العهد اللي كنعيشوه، اللي كيمثلوا اللسان الإنگليزي، هو أنه لسان فقط كيسهل انتقال الإنجازات الدريوية

(*): هاذ الترجمة من بين الأمثلة اديال فشل استعمال لسان ميت ف المدرسة حيث اللسان الميت ما يسمحش بالابتكار ف الترجمة ولا التكيف او التوسع ولكن فقط بتلصاق الشي اللي موجود ف الهيكل اديالو.

بين المجتمعات اللي لسونها مختالفة لكونو لسان حي او المجتمعات اللي كتهدر بيه كتساهم بشكل اكبير ف التطور الدريوي، إوا بدل ما كل مجتمع ايدير مجهود اكبير او ينفق ميزانيات باش ايترجم للسان اديالو كل اجديد ف كل مجالات الدريا او الصناعة او كل شان من شيان الحضارة، احسن اتكون عندو نخبة كتتقن هاذ اللسان باش اتكون قادرة اتواكب الجديد اللي كيتّنشر ف العالم، او مادام أن المصلحة ف هاذ الباب هي مشتركة بين شعوب العالم فحتى هما ملي يكتاشفوا الجديد ف المجلالت اديالهم ايخص اينشروه للعالم بهاذ اللسان باش يسهال الانتشار اديالو اعلى مستوى العالم، ولكن ف نفس الوقت ايخص ايكونوا قادرين باش ايخليوا المجتمع اديالهم مطّالع اعلة اشنوا كيدور ف العالم بالتعليم او التوليف او الترجمة عند الضرورة، باش اتحقق الفايدة لصالح التحضر. ف هاذ الاتجاه هاذ اللسان العالمي مفيد، أو كل لسان آخر حي، ف مرحلة ما بعد التمكن من الأسس او المبادئ اديال التفكير الدريوي بلسان لمّاين، ماشي من البداية كشرط باش ايتم تعليم الدريا. فاللسان العالمي إوا هو لمرونة التواصل بين الأمم اوتكاتف الجهودات باش اتعم المعرفة اعلى مستوى العالم، او لهاذ الشي كيصلح للكتابة او التوليف لهاذ الغاية ماشي لكتابة المقررات المدرسية، فمادام حي فهو كيدفع التحضر باش ايكون بسرعة اكبيرة بين الأمم حيث كل مجتمع كيتطلع للتحضر كيستوعب بالزربة الشي اللي كيروج من معرفة اجديدة باش يستافد بيها.

6- التوليف إلى كان بلسان ميت كيقتل التحضر

بما أن التعليم اديال الدريا ولّى صناعة، فهو محتاج للتوليف باش اتوفر المراجع للمتعلمين من جيه، او باش يتوثق الإنتاج المعرفي او ينتاشر بين المجتمعات المتحضرة او يدفع التحضر بشكل عام دايما لقودّام. فالتوليف ف هاذ المجال كان دايما كيكون بلسان المجتمع اللي كيتواصل بيه ف حياتو اليومية، أو انتشار المعرفة بين المجتمعات اللي اللسون اديالها مختالفة كيتم بالترجمة. التوليف بغير هاذ الطريقة كيمنع التحضر او انتشار المعرفة او الابتكار بين افراد المجتمع خاصة إلى كان متعلق بالمراجع للمتعلمين او بتوطين الدريا. التاريخ كيثبت هاذ المسالة، فملّي كيتم التحواج للسان ماشي متداول ف الواقع، كينهار مسلسل التحضر أو يتقوى الواقع اديال الانحطاط. من بين الأمثلة اللي كتعكس هاذ المسار، استعمال العربية اديال قريش عند المسلمين، خاصة لعرب، أو اللاتينية اديال الرومان عند المسيحيين، خاصة ف أوروبا، ف القرون الوسطى، فف الحالات بجوج ما كانش شي مجتمع من المجتمعات اللي كانت مصدر اديال هاذ التواليف يتكلم هاذ اللسون، ولكن كانت فقط لسون اديال السلطة او الطبقات المهيمنة ف الامبراطوريات اللي كانت سايدة، فكانت التواليف كتداول فقط ف دايرة حاصرة اديال هاذ الطبقات او ماوصلتش لعامة الناس إو إيوا ماوصلتش باش اتساهم ف التحضر العام اديال المجتمع او اقتصرت فقط اعلى ما كانت تعتاقد الطبقات الحاكمة أنه ضروري لاستمرار السيادة اديالها كما هي.

هاذ الواقع أدى لتصور أيديولوجي كيحتقر اللسون المتداولة او يعتبرها "عامية" (langues vulgaires) أو لسون التوليف او الدريا، اللي هي لسون ميتة، لسون "عالمة" (langues savantes) حتى وَهْموا عامة الناس بأن هاذ الأمر طبيعي مستقل اعلى الإرادة اديال

الإنسان. هاذ التصور انتج اعليه انحراف اعلى الهدف الحقيقي من تعلم الدريات أو اصبح غرض المتعلم ماشي الصناعة او التحضر ولكن البحث اعلى الاندماج ف الدويرة اديال السلطة او النبلاء بممارسة الخطابة او الديوانية، فتم احتقار الصناعة اعلحقاش هي شان العامة، الشي اللي أدى لتوقف تحويل قوة الملكة العقلية للفعل، كما عبر اعليها ابن خلدون، اللي تسمح بتطور الصنايع اللي تستاجب لحاجيات التحضر. فكانت العاقبة اديال هاذ الانحراف غرق أوروبا ف الظلمات لقرون او انهيار كل محاولات التحضر عند المسلمين او تفكك الإمبراطورية اديالهم.
إلا أنه ف أوروبا بداية من القرن 16 ابداوا المفكرين أو ديراوا اديالهم ايعيقوا بهاذ الانحراف أو رجعوا للطريق الصحيح أو والموا التوليف أو التعليم اديال الدريات باللسون الحية اللي هي لسون التواصل اليومي اديال المجتمعات اللي عايشين فيها. ف الفرنساوية مثلا ولات لسان الدريا بداية القرن 17 ، ديكارت مثلا كيبرر التوليف بالفرانساوية عوض اللاتينية بالقول:

" « Si j'écris en français, qui est la langue de mon pays, plutôt qu'en latin qui est celle de mes précepteurs, c'est à cause que j'espère que tous ceux qui ne se servent que de leur raison naturelle toute pure jugeront mieux de mes opinions, que ceux qui ne croient qu'aux livres anciens. »"(4)

"إلى اكتبت بالفرانساوية، اللي هي اللسان اديال ابلادي، بدل اللاتينية اللي هي اديال المعلمين اديالي، اعلحقاش كنتمنى باللي گاع هذوك اللي ما كستخدموا غي المنطق الطبيعي اديالهم حورّاوي يحكموا احسن اعلى الأراء اديالي، من هاذوك اللي ما يعتاقدوا غي بالكتوبا لقدام"
هاذ الوعي أدى للتطور ف أوروبا كاملة أو اعطى الثورة الصناعية رغم تعدد اللسون ف هاذ القارة. فهاذ التعدد ما عمّر كان معرقل للابتكار أو التطور، و لكن بالعكس كان حافز لنشر المعرفة بدون حدود أو ربطها بالازدهار أو التقدم اديال هاذ الشعوب، الشي اللي خلاها تمشي ابعيد ف التكنولوجيا المدنية او العسكرية أو تفرض الوجود اديالها اعلى العالم ف الاقتصاد أو السياسة.
في حين اتجمد المخ عند العرب أو ف المناطق اللي هيمنوا فيها رغم "فساد لسان العرب اللول" بتعبير ابن خلدون، بينما انساحبت لمْصار المسلمة من هاذ المسار او استمروا الناس اديالها ف تدْوال التعليم أو الدريات باللسون المحلية المتداولة بيناتهم ولربما هاذ الشي اللي خلاهم يسترجعوا الإرادة اديال التطور او التحضر نسبيا ابحال ف إيران او توركيا او غيرهم.
بينما استمر الانحطاط عندنا حتى ولّى اللسان العربي اديال قريش جزء من العقيدة أو واصبح ف المخيلة اديال العامة هو الخزان اديال الدريا ابحال شي مخزون امْحجَّر (réservoir fossilisé) يكفي اتطيح فيه باش تستخرج الكنوز اللي فيه. هاذ العقلية انتج اعليها الاعتقاد أن اللي اتمكن من هاذ اللسان اتمكن من اجميع الدريات. هاذ الانحراف اعلى الصواب خلّى السجع هو المنطق او فن الخطابة هو التحليل الدرياوي المطلوب، الشي اللي كرس الخرافة او الجهل بين الناس او اقتل كل محاولة ايال التحضر. هاذ الشي نبهوا ليه المفكرين اديال

المسلمين هاذي اقرون، ف الإمام الغزالي مثلا ف اكتابو "إحياء علوم الدين" ف التقديم لأسباب توليفو هاذ الكتاب أنه لاحظ أنه اطغى ف المجتمع هاذ الاعتقاد حيث ايگول (5):
" ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تستعين به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطغام، أو جدل يتذرع به طالب المباهاة إلى الغلبة و الإفحام، أو سجع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام، إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرام و شبكة للحطام"
ثم كيگول ف نفس الكتاب (5):
"فصار يسمى المجادل المتكلم عالما و القاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالما، وهذا لأن العوام هم المستمعون إليهم فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره"
كذلك ابن خلدون انتابه لهاذ المصيبة اللي عمت مجتمعات المسلمين أو نبه ليها ف المقدمة ديالو حيث ايگول أو هو ايحاول يفصل المجهود ديالو اللي دارو ف المقدمة المشهورة اللي أسس فيها لدرية الاجتماع اعلى فن الخطابة (1):
" و إعلم أن الكلام في هذا الغرض مستحدث الصنعة غريب الترعة عزيز الفائدة اعثر عليه البحث و أدى إليه الغوص و ليس من علم الخطابة إنما هو الأقوال المقنعة النافعة في استمالة الجمهور إلى رأي أو صدهم عنه"
للأسف هاذ التنبيه ما فهموهش العرب ف وقتو أو ما زال ما قادرينش يستوعبوه، بينما شكل الإشارة اللي التقطوها ديراوة ف أوروبا أو ابناوا اعليها عصر النهضة اللي وصّل أوروبا للحضارة اللي وصلت ليها اليوم.
الدريا إوا ماشي هي اللسان، ولكن كل ما اتطور اللسان او اتمكن مجتمع ما، كل ما اللسان كيتطور أو المجتمع كيتحضر أو كيستقر، او اللسان باش يتطور ايخصو ايكون حي يعني ايكونوا يهدروا بيه الناس او بيه يتبادلوا المعرفة او ايوطنوا التيكنولوجيا او ايحققوا التحضر. فكيساهل ف هاذ الواقع التوليف اعلى الناس او يزداهر الكتاب او الصنايع اللي مرتابطة بيه او اتوسع القاعدة ديال القاريين او يتعمق التماسك ديال المجتمع او النظام. أما إلى استمر الواقع كما راه حتى اليوم ف المجتمعات ديال العرب فما يحلمش الواحد ان التوليف ف الدريات غادي يتطور او اساهم ف التقدم أو أن القراية غادي اتعمم بين الناس أو أن التعليم غدي يعطي شي نتيجة لصالح التقدم او الازدهار.

مراجع:

(1)- مقدمة ابن خلدون (Source: http://saaid.net)
(2)- احياء علوم الدين ديال أبو حامد الغزالي
(3)- موقع انترنيت يتكلم اعلى گاليلي
http://lerefletdelalune.blogspot.com/2014/07/galilee-lunivers-est-ecrit-en-langage.html
(4) https://www.pourlascience.fr/sr/presence-histoire/ecrire-la-science-en-francais-au-moyen-age-2949.php
(5)- احياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي